قداس الشعانين

صباح الأحد ٣ نيسان ٢٠٠٤ ترأس سيادة متروبوليت بيروت وتوابعها المطران الياس عوده قداس الشعانين في كنيسة نياح السيدة في رأس بيروت بحضور حشد كبير من المؤمنين، حاملين أطفالهم فرحين بالعيد.

بعد الإنجيل ألقى سيادته العظة التالية:

«باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد. آمين.

يا أحبة، البارحة رأينا الرب يسوع يقيم الميت لعازر. وجدناه الإله الذي يقيم الموتى ويظهر للناس جميعاً أنهم قائمون معه إن كانوا أبراراً. كما وجدناه إنساناً مثلنا لأنه عندما أتى إلى قبر لعازر بكى. وما أعظم أن يبكي الإله! الله يبكي معنا. لقد تجسد لكي يتعاطف مع الإنسان، كل إنسان، مؤكداً لنا أنه يرى ويعرف آلامنا وأوجاعنا وأحزاننا وكل ما ينتابنا، وأنه يتألم بالألم الذي نعرفه، وسنراه على الصليب بعد أيام. لكنه يحزن بسبب انحراف الإنسان نحو الخطيئة والأمور الضارة التي تؤلم بطبيعتها الإنسان. أتى إلينا ليحمل جسدنا المعطوب، المتألّم، ليحوله إلى جسد سليم صحيح ويعيده إلى صورته الأولى التي خُلق عليها في البدء في الفردوس. أتى إلينا حاملاً جسدنا الموجوع لكي يسمر الوجع والألم والحزن على الخشبة. لكنه، هو القدوة والمثال والصورة الحقيقية لنا. فإذا أردنا أن نخرج من وادي الدموع الذي نرزح فيه وأن نُنتشل من جب الألم الغارقين فيه، علينا أن نتمثّل بالمثَل، بيسوع. قال بولس الرسول: «كونوا متمثّلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح» (١ كو١١: ١). هذا الإله العظيم الحنون المحب، بفيض محبته خلق الكائنات جميعها والإنسان على رأسها، وما ارتضى، ولو أن الإنسان تمرد وعصى، أن يبقيه في معصيته وتمرده. أتى إليه ليجذبه إلى حالة يعتبر اللهُ أنها الأفضل لنا إذا سمعناه وأطعناه ولجأنا إليه. البارحة، في سبت لعازر، يظهر لنا أنه الإله، لكنه بكى على صديق حبيب ليقول لنا إني إنسان مثلكم. هذا الإله تجسد ليعمل مشيئة الله، هذه المشيئة التي تحول الإنسان إلى إله عندما تصبح إرادة الإنسان مماثلةً لإرادة الله وتطبيقاً لها. عندها أصبح أنا الإنسان مرآةً لله وصورةً، الصورة التي خُلقتُ عليها منذ البدء.

التلاميذ حذّروا يسوع أنه إن ذهب ليقيم لعازر، بسبب حبه الكبير للإنسان، سيقتله اليهود الذين هددوه بالقتل لأنه يكفر بتعاليمهم والشرائع. لم يأبه يسوع بل ذهب ليسكب محبته على آلام أختَي

لعازر ونوره في ظلام القبر الذي أنتن فيه لعازر. لم يأبه للتهديد لأن النور فيه هو مشيئة الله وعندما ينظر الإنسان إلى مشيئة الله لا يعثر لأنه يكون في النور في كل حين.

بعد إقامة لعازر تابع يسوع طريقه إلى أورشليم، المدينة المقدسة، لكي يكون ذبيحة نقية طاهرة على مذبح الله الآب، عنا جميعا. حمل جسده ليكون ذبيحة على الصليب، لكي يطهرنا بناره المقدسة ويجعلنا أنقياء ولكي يرحب بنا في ديار القديسين في مدى السماء. هذا الإله العظيم لم يأتِ كعظماء الأرض ورؤسائهم. أتى ليعلّم الإنسان أنه بالتواضع والوداعة والسلام والمحبة والتقوى والصبر يستطيع أن يعرف طريق الرب ويسير معه. أتى يسوع ليقلب الموازين، ليغير كل مفهوم أرضي إلى مفهوم سماوي. لقد أكد لنا القديسون وفي طليعتهم بولس الرسول أن وطننا ليس وطن أبناء هذا الدهر. وطننا في السماء وقد تجسد يسوع ليعيدنا إليه، ليكون لنا قدوة ومثالاً. لم يأتِ على فرس بل على حمار صغير، على جحش بن أتان. لماذا اختار أن يجلس على هذا الحيوان؟ تفسير الآباء أنه أراد أن يدوس على ضلالات هذا الدهر وأوهامه. أراد أن يجتاح كل شر يأتي من عبادة آلهة هذا الدهر.

دخل الرب أورشليم بوداعته وطهارته ونقائه وتواضعه. لم يعرفه علماء أورشليم من الكتبة والفريسيين. من كانوا يظنون أنفسهم مؤمنين لم يعرفوه. وحدهم الأطفال استقبلوه ورأوه مِلكاً وهو مِلك حقاً لكنه لا يشبه سائر الملوك. سماته وعلاماته تختلف عن سمات سلاطين هذا العالم. الأطفال فرشوا ثيابهم أمامه وحملوا أغصان الزيتون مستقبلينه كما يستقبل الكبار ملوكهم والعظماء. هذا يعني أننا إن لم نصبح كالأطفال لن نعرف الله ولن ندخل ملكوته: «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات» (متى ١٨: ٣).

أثناء محاكمته أمام بيلاطس لم ينكر يسوع أنه مِلك لكنه قال «مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا ١٨: ٣٦). أنا أحيي وملوك الأرض يقتلون. أنا أحتضن وهم يضطهدون ويهجرون. أنا أحب كل الناس وهم يحبون ذواتهم. يمتهنون الرذائل وأنا لا أعرف إلاّ الفضائل. يعملون من أجل مصالحهم أما أنا فأُحب وأموت من أجل الجميع، من يحبني ومن لا يحبني.

يسوع مِلك على رتبة ملكيصادق. عندما بشّر الملاك مريم العذراء بحبلها قال لها «ها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه **ويملك** على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون **لملكه** نهاية» (لوقا ١: ٣١-٣٣).

وعند ولادة يسوع سأل المجوس الذين كانوا يقصدون المكان الذي ولد فيه «أين المولود مِلك اليهود». وعند صلبه كُتب على الصليب «يسوع الناصري مِلك اليهود». وهو حقاً مِلك وعرشه إلى أبد الدهور.

لقد اجترح يسوع العجائب العديدة خلال حياته على الأرض. إحداها كانت أعجوبة إطعام الجموع من خمسة أرغفة وسمكتين. بعد أن شبع الجمع أرادوا أن يختطفوه ليجعلوه مِلكاً، لكنه انصرف عنهم إلى الجبل لأنه لم يكن يبتغي ملكاً أرضياً.

الإنسان يقبل يد العاطي. انها طبيعة البشر. يسوع كان يعلم أن هؤلاء لحقوا به لأنه أشبع جوعهم. كم من الناس يتملّقون الآخرين ويحبونهم في الظاهر لأنهم يأكلون من خبزهم ويعيشون من عطاياهم. لذلك قال يسوع للجموع أنتم تتبعونني لأنني أطعمتكم خبزاً.

ملكوت المسيح يسوع هو ملكوت الفقراء إليه. الإنسان، غنياً كان أم فقيراً، إذا كان محتاجاً إلى الرب ولا يحيا بدونه يكون الرب مِلكه وربه. يسوع المسيح ملكنا وربنا هو الرب المعطي الحياة.

في رسالة اليوم يقول لنا بولس الرسول «إفرحوا في الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا»، وكأنني به يقول لنا: أيها المؤمنون، عندما عرفتم يسوع زال حزنكم لأن المسيح أصبح فرحكم وغبطتكم لذلك افرحوا به كل حين، «وليظهر حلمكم لجميع الناس، فإن الرب قريب». إن الرب أقرب إلينا من قلبنا لذلك يضيف بولس الرسول «لا تهتموا البتة بل في كل شيء فلتكن طلباتكم معلومة لدى الله بالصلاة والتضرع مع الشكر». عندما تصلّي وتتضرع اشكر الله لأنه هو مصدر كل ما لديك. «وليحفظ سلام الله الذي يفوق كل عقل قلوبكم وبصائركم في يسوع المسيح». الإنسان المؤمن سلامي. المؤمن إذا غضب يتألم وإذا أبغض أحدا يتألم وإذا ألحق الأذى بأحد بالكلام أو بالفعل أو بسوء النية يتألم. «أيها الإخوة، مهما يكن من حق ومهما يكن من عفاف ومهما يكن من عدل ومهما يكن من طهارة ومهما يكن من صفة محببة ومهما يكن من حسن صيت، إن تكن فضيلةٌ وإن يكن مدح ففي هذه افتكروا». المؤمن لا يفتكر بالشر والرذيلة والمؤذيات. المؤمن يفتكر بما يبني الآخرين وينفعهم. يسوع دخل أورشليم ليقول لنا إن أردتم أن تصبحوا ملوكاً وأسياداً فبالفضيلة وحسب، بالتواضع والوداعة والسلام. وإن كنت فاضلاً يحيا الرب فيك وتكون سيدا على كل خطيئة وكل شهوة وكل ما يدعوك إلى فعل الشر والرذيلة.

نحن على أبواب الأسبوع العظيم، وجهادنا الذي عشناه طيلة الأربعين يوماً أصبح وراءنا، لكنه كان طريقنا إلى ما أوصى به يسوع وتلميذه بولس: أن نكون عاشقين لكل فضيلة، عاملين كل ما يرضي الله، وأن يجعل كل منا الآخر في قلبه وفي أحشائه ليلده جديداً محباً لله.

جعلكم الرب من أنقيائه ومن محبيه ومن الذين يرافقونه باستمرار ولا يتركونه في آلامه، لتكونوا معه في قيامته وفي مجده السماوي. آمين».